صنعتني يا واقعي ...

قصة بقلم سميرة مكي

كانت ليلة غاية في القبح .. ماتت لذة السهرة الشتوية .. حيث عبير الكستناء يفوح بين الجمرات ، والدفء يخدر القلب المتحجر .. نواح القطار ما زال يضايق اذنها وقلبها الصغير .. لن يكون لها في هذا الشتاء آب الى جانبها تقبل عينه وتعض رقبته !..

وتدير عينيها القلقتين في سقف الغرفة ، زاوية فزاوية فزاوية.. وتنزل قدمها الصغيرة تحت اللحاف .. بارد فراشي اليوم يا الهي .. وتفكر . الا يمكن ان تكون الحياة بلا وداع ؟؟ حتى عصافيري كسرت قضبان قفصها لتهرب مني .. لا بأس يا آبي ستعود .. كنت تختفي وراء الباب لتراني : هل نمت آم لا ، وتقفز الي تقبلني لاغمض عيني واصلي .. ادعو لك ولامي وليغفر الله للناس خطاياهم .. وسألتك يوما : ما هي الخطايا يا ابي ؟ فامسكت بحنان خصلة من شعري حائرة على جبهتي ورددتها الى خلف ونظرت الي نظرة لم افسرها وقلت : « الخطايا هي اعمال قبيحة للناس يا حلوتي » وشددت على يدك لاهفة متسائلة باهتمام طفولي : « ولا يعرف الناس عذاب الله يا ابي ؟ »..

فاجبتني بتمهل لديذ : « اجل يا ابنتي يعرفون .. ويقترفون ثم بعدها يعترفون .. » وعضضت شفتي بحيرة .. لم يدرك عقلي الصغير لماذا .. كانت تشغلني تناقضات الناس منذ كنت طفلة ، ولم امل يوما من التساؤل .. وما زال في خاطري سؤال تائه : « لماذا يقترف الناس الخطايا ؟ » انني اخاف عذاب الله حتى الموت .. الا يخافه الناس مثلي ؟ لماذا ؟.. وكنت اضحك بسذاجة الطفولة واقول مكتفية : « الافضل الا يخطئوا والا يعترفوا ... أليس كذلك يا أبي ؟ » وكنت تضمني الى صدرك الحاني ، وأتخيل دمعة في عينيك عندما تضع رأسي على الوسادة وتقول : « لو كان للناس قلوب طاهرة كقلبك يا صغيرتي لما كانت هناك خطايا . » فدعي الناس لرب الناس ونامي بهدوء » لكنني لا استطيع النوم بهدوء .. وتطفىء النور متسللا بحذر .. ولا استطيع ان اتنفس بحرية والضوء مطفأ .. ولم تكن تعرف هذا عني .. وانا لا أقول لك عما يخيفني حتى لا تتألم .. ولم تكن أمي تسمع لي ، أي دنيا كانت في فكرك وفكرها ! لم أكن أدريها ولم أسألك ، كانت تكفيني لمسة الحنان من قلبك .. وصدري يعلو ويهبط بقصص طويلة تحكيها لي عن صراع الرجال الاقوياء في البحر ، عن الملك المفقود .. عن الانسان السعيد وقناعته بالليل والفناء وضوء القمر .. كل هذه الحكايا فقدتها عندما تركتني، وكنت أتذكرها وحدي كل ليلة لان امي لم تعاملني معاملة الاطفال .. كانت تحاول آن تجبرني لاكون منذ ولدت كبيرة .. وهذا ما جعلك تعلق بذهني اكثر .. أمي قوية ، تعطيني الحنان بمقدار وأتمنى لو آذوب بحضنها لالمس قلبها واعرف موضعي الحقيقي فيه .. اخاف كلمتها ، حكمها .. وانت كنت تخافه يا أبي .. عند اختلافكما على قضية كنت تجعلها تصمت بنظرة منك ، لم تكن هذه النظرة تهديدا بل كانت كلاما تفهمه ، وتديرني آنت بيدي تتمرح معي قليلا قبل ان تخفيني في غرفتي .. او تشغلني عنكما بشيء ، وتتابعان الخلاف . وبدآت آعي انكما لا تكونان معا الا وآرى اصفرار الكلمة بينكما ... وارتجاف الدمعة التي لم تسل من عيني آمي .. كان هناك شيء لم أعرفه ولم يحاول عمري الصغير ان يفهمه .. وكلمة كنت اسمعها آخر الليل ، المرأة الثعلبة من خلف الباب آسمعها .. هذه الكلمة كانت امي تصف بها امرأة لا شك ، فمن تكون هذه المرأة يا ابي ؟ لا يمكن ان تكون امرأة اعرفها ، فأنا من قديم قديم معجبة بأمي، المرأة القوية التي علمتني كره الشتائم ...

الليالي مرت طويلة علي .. سنة فسنة ، حتى اصبحت سبع سنوات ويدك لم تلمس اجفاني خلالها .. مدة طويلة عشتها في منأى عن فهم الامور ... عن فهم غيابك ، ونحن ما كنا بحاجة لمال وغنى اكثر .. كان يدور الشتاء كل سنة وتعود ذكرى نواح القطار في آذني وقلبي .. اليك ايها الرجل الذي كنت أقدس ... ولم أكن اكتفي برسالة واحدة منك كل شهر .. كل شهر كنت تبعث رسالة من كل بلد ، هكذا قيل لي ، ولم تحاول آمي ان تعطيني واحدة منها لاقرأها يوما .. كان مختصر الكلمة يصدر منها عن رسالتك لي ـ والدك بخير يهديك قبلاته ـ كنت اردد هذه الكلمات بفكري مرة كل شهر قبل ان تلفظها وهي تطوي الرسالة وتضعها في خزانتها .. وكنت آحدق بهذه الخزانة بشراهة الفقير للقرش .. وكم رسمت الحيل في صدري لاسرق من امي الرسائل ، وكنت اخذل في كل مرة ، كلما نظرت الى عينيها أرى الوداعة والقسوة ، فألوم نفسي لانني حاولت آن اخون ثقتها بي .. واعرف انك لن ترضى عني ان هي وبختني .. كانت نفسيتي شفافة ، انا فعل الكلمة الحنونة ، لو كنت اسمعها اذوب بمعناها .. كان كل ايماني أنني ولدت بلحظة حب صادق .. هذا ما قلته لي .. وهذا ما حاولت آمي ابعاده عن ذهني ، هي تحاول صدمي حتى باحساسي فأغضب لكنني لا استطيع آن اثور امامها حتى لا تبدأ بسرد القصص الغريبة عن فلانة وفلانة التي قتلتها العاطفة وعذبها الضعف ... ترى هل الحب يقتل ؟ لا يمكن ، لا يمكن ان احاول تصديقها ابدا ، كيف هذا وانا احسه بالحياة ، بكل عصب وجد بالحياة .. بلون زهرة غريب .. بغيمة ساجدة .. بتلويحة غصن اخضر .. بماء نهر يتلوى حول صخرة ، وبنظرة عميقة عميقة ترجف الهدب وتعصر القلب .. لو لم يزدد الحب في قلبي يا آبي لصدقتها ... لكنه ازداد وملأ جوانح طفلتك التي تركتها صغيرة على عتبة المحطة ... سبع سنوات نحتت جسدي وقلبي وفكري .. سبع سنوات جعلتني صبية تدير الكحل في جفنها .. وتبعثر خصلة الشعر على جبهتها بتأنق .. وتغير مجرى قلب رجل .. رجل اعاد لها الشتاء دافئا خدر قلبها فأسعدها .. وعلمها هذا الرجل معنى الحياة ، فمسح عن نفسها تساؤل الطفولة .. وهداها الى سكب العطر .. وكتابة الكلمة الفعالة .. ويسعدني ان التقيته يا أبي لانني التقيتك فيه ، لا تفارق عينه هدهدة الحنان.. ولا يخونه اعتداد التصرف ... احس معه انني كبيرة .. وطفلة شهية نادرة .. وحينذاك كنت آتساءل يا آبي ، ترى كيف تبدو النسائم لبعض الناس ريحا مؤذية ؟ وكيف تبدو ثورة الطبيعة لامي طوفانا من الغضب الالهي ، كيف هذا وانا اعتبر آن احلى تعبير للوجود ان تثور الطبيعة لتلد لنا قرص الشمس الحار فينوب فينا الجليد .. ونفني بطلاقة وعاطفة .. ونصبح غير قابلين للكره والثورة .. لكن ثورات آمي لا يحدها انفعال الضوء والدفء ، ففيها يهجع الحب والكره بعنف . كانت هي من الالغاز الصعبة عندي .. مسألة حسابية غامضة لكنني بدأت بحلها عندما عرفت معنى الحياة فتلمست قيمة الكره في قلبها ومقدار الحب .. عرفت ضعف المرأة من قوتها .. عندما تحس الواحدة منا بمرارة العذاب يتلون حجر عينها بالشراسة والضياع .. ليس من الحق يا أبي ان تتركها وحيدة كل هذه المدة .. مرة واحدة لم تلمس يدك يدها منذ سبع سنوات .. كيف ؟ كيف ؟ هي أمي .. وانت أبي ، وانا تعبير ارتباطكما ، الا اكفي انا دليلا على الحب ؟..

عودة الفارس القتيل

« الى شعراء الضفة الغربية »

الحرف لا يسفك الا دمه في ساعة النزال
وانه من ألف جيل كان ... ، والحياة
كانت ..... ،
وكان الفارس الملثم الحزين
يرحل من واد لواد ... دونما قرار
يطلق سهم القلب ... في مجاهل الظنون

***

ان أسبلت أجفانها النجوم
واغرورقت عيونها ... وانسكب الظلام
ان غاض نهر الحب في الرخام
وغارت الطيبة في التراب
... عاد مع الغمام
من رحلة العذاب
عاد ... وفي عينيه حرف يطلع النهار
منـه ..... ،
ومنه يولد اللؤلؤ في المحار
عاد ... وفي كفيه طفل أسمر يصيح
الشمس حرف ،
وفم المسيح ... حرف ،
ومنه يورق السلام
في أرضنا الخراب .

***

دم الضحايا ... ، في العيون السود ، جرح يذرف الدموع
وفي كهوف الموت .. ، في معاصر القلوب
ومن خلال الصمت ، والرماد ، والذنوب
تسلقت خيوط نور أذرع الجدار
لترسم الحرف على نوافذ الطريق
تذكار من غابوا ... ، وفي احداقهم
براءة الصغار

***

عيون من ماتوا ... قناديل على أعمدة الجسور
حروف ياقوت .. تشع الحب في غياهب الصدور
عيون من ماتوا ....
بلا اكليل ورد ،
دونما قبور
لن تهجع الليل ، ولن تغور
لكنها تنبض في القلوب ،
في العيون ،
في النحور .

***

... الحرف ، كالنجوم ، مهما غاب ... في متاهة العصور
لا بد ان يعود من غيابه الطويل
يحمل للاطفال .....
ذكرى الفارس القتيل

بغداد

حسين جليل

وتنقضي الذكريات على خطوط جبهتها كلما طرقت نفسها بتساؤلاتي ، ان الخوف يرصدني كشبح أسود، في الظل انا اقف منتظرة تساقط النور على غموض حياتها وحياتك .. لكني احسها في وطن اخر .. في مدينة بعيدة تناضل ، وتمزق العواصف بأسلاك شعرها لتكون قرب اسمك التائة .. وتفجر الكلمة في وجهي فتمزقني حيرة اكبر واعمق ، تقول لي بجمود : « عمرك اضعف من فهم الحقائق .. ومع هذا فقد قرب الوقت لتصلك الرسائل المهمة من آبيك ، لكن تذكري معها انك ورثت عنه الاندفاع الاهوج ... والعاطفة المترنحة .. فحاولي ان تكبري لتكوني غدا سيدة قوية .. »

وبدأت المحاولة لتصلني رسائلك المنتظرة .. وكنت آمز ملاحظتها لي من طرف خفي لمراقب الفنار ينتظر نور سفينة بعيدة ويبتسم كلما اقتربت من برجه .. وانا احلم كل ليلة بصندوق البريد العارم .. وتنطفيء الابتسامة عن شفتي كلما مر يوم خيب حلمي .. وجعل الهم يغزو جبيني ، والتكشيرة تعرف موضعها على فمي ، وان تاهت بين عيني .. وتخبط صديقي بالحيرة من انقلابي فحاول ان يلقني كطير حنون ليعطيني الحرارة لاتكلم واتنهد ... لكنني سرت معه بقدمين متلاشيتين ، ونظرة تحاول اختراق السماء ، الليل والنهار لتصل كالرمح الى الهدف .

شابة كعجوز ، كأمي اصبحت ، لي علامات الانسانة القوية ... فالطفولة تباعدت عني كالضباب الهارب .. والضحكة تفقتها لليوم الموعود .. وطال هذا اليوم وتمدد قلقا على وجودي كمرض في القلب .. وانا كنت افضله لو بقي بعيدا مماطلا سنين وسنين ، حتى موتي ولا اعرف في لحظة اختنقت فيها ان رسائلك كانت وهمية وانك .. انك لم تكن ابي ...

سميرة مكي